

العقد الطبيعي "من الحرب إلى التعايش"

نحو تصور جديد لأخلاقيات البيئة من منظور ميشال سير

The Natural Décade "From War to Coexistence"

Towards a new vision of environmental ethics from the perspective of Michel Serres

* بن عودة حبيب / المشرف: أ.د. رباني الحاج

مخبر تطوير للبحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية

جامعة د/ مولاي طاهر – سعيدة – docbenaouda@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/12/13 تاريخ القبول: 2021/01/12 تاريخ النشر: 2021/12/28

ملخص:

نروم من وراء هذا المقال إلى التعرف على فلسفة وأفكار الفيلسوف الفرنسي " ميشال سير " الإيكولوجية، من خلال البحث في إمكانيات وحدود العقد الطبيعي الذي اقترحه هذا الفيلسوف. حيث يوضح كيف أن القدرة البشرية على بناء واستكشاف الطبيعة من خلال استخدام العلوم والتكنولوجيا، تقود البشرية إلى تغيير المصير العالمي للجنس البشري وتطور جميع الكائنات الحية الأخرى على هذا الكوكب. ومن المعلوم أن الأزمة الاجتماعية والبيئية المعاصرة، هي أيضا أزمة ثقافية ترتبط أساسا بالطريقة التي تفكر بها الثقافة الغربية وتتداخل معها. وبالتالي، فإن هذه الأزمة تتجاوز بكثير تلوث الغلاف الجوي أو ثقب طبقة الأوزون. إنها تنطوي على مخاطر تهدد البشرية في قيمها الأخلاقية، ونظرتها للمستقبل وحدود الإنسانية ، فهي دعوة إذن إلى وضع أخلاقيات جديدة للحد من سيطرة الإنسان التقنية على مجمل مظاهر الطبيعة والكون. لذا فإن ميشال سير يدعو إلى إعادة الاعتبار للطبيعة كموضوع للقانون من خلال وضع عقد طبيعي بين الإنسان والطبيعة لخلق التوازن في علاقة الإنسان مع الطبيعة.

كلمات مفتاحية: العقد الطبيعي، إتيقا، المستقبل، التعايش، فلسفة البيئة.

Abstract: From this article we intend to get acquainted with the ecological philosophy and ideas of the French philosopher "Michel Serres", through researching the possibilities and

limits of the natural contract proposed by this philosopher. It shows how the human ability to build and explore nature through the use of science and technology leads humanity to change the global destiny of mankind and the development of all other living beings on this planet. It is well known that the contemporary social and environmental crisis is also a cultural crisis that mainly relates to the way Western culture thinks and interferes with it. Consequently, this crisis goes far beyond the pollution of the atmosphere or the hole in the ozone layer. It involves risks that threaten humankind in its moral values, its outlook for the future and the limits of humanity, so it is a call to develop new ethics to limit mankind's technical control over all aspects of nature and the universe. Therefore, Michel serres calls for the restoration of nature as a matter of law by establishing a natural contract between man and nature to create a balance in a person's relationship with nature.

Keywords The Natural Décade, ethics, the future, coexistence, environmental philosophy.

Résumé:

A partir de cet article, nous entendons faire connaissance avec la philosophie écologique et les idées du philosophe français "Michel serres", en recherchant les possibilités et les limites du contrat naturel proposé par ce philosophe. Il montre comment la capacité humaine à construire et à explorer la nature grâce à l'utilisation de la science et de la technologie conduit l'humanité à changer le destin mondial de l'humanité et le développement de tous les autres êtres vivants sur cette planète. Il est bien connu que la crise sociale et environnementale contemporaine est également une crise culturelle qui se rapporte principalement à la façon dont la culture occidentale pense et interfère avec elle. Par conséquent, cette crise va bien au-delà de la pollution atmosphérique ou du trou de la couche d'ozone. Elle comporte des risques qui menacent l'humanité dans ses valeurs morales, ses perspectives d'avenir et ses limites. C'est donc une invitation à développer une nouvelle éthique pour limiter le contrôle technique de l'humanité sur tous les aspects de la nature et de l'univers. Par conséquent, Michel serres appelle à la restauration de la nature en

tant que question de droit en établissant un contrat naturel entre l'homme et la nature afin de créer un équilibre dans la relation d'une personne avec la nature.

Mots clés: le contrat naturel, éthique, avenir, coexistence, philosophie environnementale.

● مقدمة:

يعد الفيلسوف الفرنسي ميشال سير* (1930 – 2019) (Michel Serres) مفكرا متعدد التخصصات، استفزازيا في التفكير والكتابة عن مشكلات عصره الراهنة، فهو جريء ومليء بالتحديات ومثير للجدل، ويكتب بطريقة غير واضحة للغاية، مع الاستعانة فيها بالأمثال دائما. وفي بعض الأحيان، يستعصى على القارئ فهم تفكيره على الفور، وغالبا ما يتم اتهام أسلوبه بتكرار نفس المفردات. يعترف بإدراكه أنه في أعماله الأولى كان يمكنه أن يكون أكثر وضوحا، لكنه لا يشعر بأي ندم على أي شيء كتبه، ومع ذلك، فإن تألق وأهمية كتاباته واضح. يلاحظ أن أحد نوايا الفيلسوف هي التحذير من الحاجة إلى تعدد التخصصات، بحيث تكون هناك تفاعلات بين العلوم الدقيقة (التي يسميها العلوم الصعبة) والعلوم الإنسانية، وتسعى لتحقيق توازن في علاقات الإنسان مع العالم. فعدم تجزئة المعرفة وقضية العنف يشكلان أبرز اهتماماته الفلسفية الرئيسية.

بالنسبة لـ "سير" لا ينفصل العمل عن حياة الفيلسوف، إنه ملخص لأفكاره، ولا يقتصر على أي سطر من التحقيق الفلسفي. "لقد حاولت دائما بناء فلسفة تراعي المعرفة المعاصرة وذلك يساهم في تشكيل عالمنا" (serres, 2007, p.177)، في محاولة لجعل المعرفة ثقافة، ينتقد "ميشال سير" الفلاسفة المعاصرين الذين ما زالوا عالقين فقط في مناقشة قضايا الميتافيزيقيا أو الانطولوجيا، والذين يصرون في منتصف القرن الحادي والعشرين على النظر في مشاكل القرون السابقة دون إعطاء أجوبة وحلول ممكنة " تلجأ الفلسفة اليوم إلى التفاصيل الصغيرة التي توفر لها الأمان" (serres, 1990, p.82)، ومع ذلك، فهو يعترف بأهمية تاريخ الفلسفة بأكمله، مع التشديد على ضرورة أن يفكر الفلاسفة في مشاكل عصرهم، لقد انحرفت الفلسفة عن معرفة العالم، كما لو كان البشر يعيشون منعزلين، دون بيئة تأويهم فهي عالقة في الماضي، ولم تعد تفهم البنيات الجديدة، ولا يمكنها

* ميشال سير فيلسوف فرنسي معاصر من مواليد مدينة اجان 1930، واشتغل عضوا في الأكاديمية الفرنسية، بالإضافة إلى اشتغاله بالتدريس والبحث والتأليف، له مؤلفات عديدة تتجاوز نحو 50 مؤلفا في مختلف الميادين الإبيستمولوجية و تاريخ العلوم، والفلسفة والنقد، من أشهر كتبه سلسلة هرمس في 5 أجزاء، العقد الطبيعي، الأصعب الصغيرة وغيرها... توفي في جوان 2019.

أن تقوم بتصميم منازل لأجيال المستقبل. على عكس الفنين والعلماء الذين يخلقون علما جديدا، فإن الفلسفة تفكر في الأمر كما لو كان العالم قديما.

بعد إلقاء القنبلة الذرية على مدينتي هيروشيما وناغازاكي في اليابان (1945) كان من الضروري على الفلسفة أن تطرح مشاكل حقيقية. كان من الضروري عليها وبشكل عاجل التفكير والتساؤل عن ذلك التفاؤل الذي سيطر على الفنين والعلماء، حيث كان من الواضح أن المعرفة كانت محاطة بالقوة والعنف.

في عام 1990، نشر مؤلفه الشهير الموسوم بـ "العقد الطبيعي" (Le Contract Naturel) والذي أثار العديد من المناقشات التي لا تقتصر على الفلاسفة فقط بل حتى العلماء. في هذا العمل، يتناول "ميشال سير" بطريقة فلسفية وعلمية القضايا المتعلقة بالمشاكل البيئية، وعلاقة الإنسان بالطبيعة ومستقبل البشرية، مع إبراز أهمية القضية القانونية، ومسألة الحقوق فيما يتعلق بالطبيعة، ومحاولة إنقاذ توازن هذه العلاقة. عند التفكير في العلاقات بين العلم والعنف والقانون، تتوضح المشاكل الأخلاقية والعلمية والسياسية. ومن هذا المنطلق يمكننا طرح بعض التساؤلات التي نروح البحث عن حلول لها من خلال مناقشة الفلسفة الإيكولوجية السيرية (نسبة إلى سير): كيف استطاع ميشال سير بيان حقيقة أخلاقيات البيئة في ظل الثورة التقنية المعاصرة؟ وهل الالتزامات الخلقية تحتم على البشر وضع عقد طبيعي مع البيئة؟ وما هي الشروط والمعايير الفلسفية والإتيقية التي يستند إليها هذا العقد؟

1- الأزمة البيئية ومشروع العقد الطبيعي:

في مؤلفه "العقد الطبيعي" يلفت ميشال سير الانتباه إلى لوحة للرسام الإسباني فرانسيسكو غويا*، (Francisco de Goya) حيث يصور فيها هذا الرسام كفاح عدوين، والأرض تمتصهما، تدور المعركة على الرمال المتحركة بينما يغرق المتصارعان في الوحل، يشير سير إلى أن الأرض التي نسبها المصارعان تستحق القتال، لأنها تهرق هؤلاء الرجال الذين كانوا مهتمين فقط بمصالحهم: ينتصر البعض على الآخر لكن الرمال المتحركة هي التي تريح المعركة وتكشف قوتها للمقاتلين (serres, 1990).
(p.13) وهذا التصوير لعلاقة الإنسان بالبيئة يثير تساؤلات حرجة على الفلسفة ينبغي عليها أن تكشف عنها من قبيل: "هل البشر هم الكائنات الوحيدة التي تمتلك قيمة أصلية في الكون الذي نعرفه أم أن

* فرانسيسكو غويا (1746-1828) رسام إسباني يلفب بأبو الفن الحديث، عكست لوحاته الفنية تلك الاضطرابات السياسية والاجتماعية في عصره، واكتسب شهرته من رسمه صورا للنبلاء وشخصيات الأسر الحاكمة.

العالم الطبيعي والنباتات والأقاليم الحيوية تمتلك قيمتها الخاصة المستقلة؟ هل على البشر التزامات خلقية نحو البشر الآخرين فحسب، أم نحو الحيوانات والنباتات والمنظومات البيئية؟ هل تتفق الحرية الإنسانية مع اختفاء كل شيء بريء وطلق في الطبيعة؟" (زيرمان وآخرون ، 2006 ، ص. 10).

بطريقة غويا، يصور ميشال سير نضال الإنسان ضد الطبيعة المنسية (كوكب الأرض) بسبب الطموح والفردية عند البشر، تسرق المشهد وتكشف قوتها: قوة أكبر وأقوى من الإنسان والتقنيات والعلوم. وهكذا، يكشف الفيلسوف الفرنسي عن المشكلات التي تسببها الثقافة الغربية التي وضعت جانباً أو نسيت الطبيعة، وعواقب هذا النسيان ضد الإنسانية. " للمرة الأولى، يحذر حكيم من أن الأرض تشارك في المعركة ويمكن أن تفوز أو تخسر أو تقتل. في غويا، يسود الوحل و يغرق المقاتلين. بدأنا نفكر قليلاً أن الأرض والرجال يمكن أن يخسروا معاهذه الحرب القديمة والجديدة "(serres, 2008, p.131).

وفقاً للحقائق التاريخية، فالمعركة مع العالم لم تحدث مباشرة بين القدماء، كما يشير إلى ذلك سير، لأن هؤلاء اعتقدوا أن الطبيعة كانت هبة من الله للناس. ونظراً لوجود اعتقاد بأن جميع الأنواع قد خلقت من أجل الإنسان، تصبح تدريجياً فكرة الطبيعة هذه باعتبارها كهدية إلهية تحيل إلى فكرة أن الإنسان "وباً" وملكاً لكل الطبيعة. لذلك يمكن القول بأن الإنسانية ولفترة طويلة من تاريخها لم تكن على دراية بآثار أعمالها الاستغلالية على الأنواع الأخرى. الموارد الطبيعية بدت لانهائية، وحتى اليوم، ما يزال الكثير يؤمن بعدم نفاذ الموارد الطبيعية. كثير من الناس، الذين يعرفون غابات الأمازون المطيرة ، على سبيل المثال، يعترفون أنه في مواجهة شساعة الغابة ووفرة مياه النهر، من الصعب الاعتقاد بأن الغابة مهددة. كما لو كان الاستغلال في حده الأدنى نظراً لعظمة المكان. ولأنها كبيرة، لن تنقرض الغابة أبداً.

تؤدي القدرات البشرية الجديدة - لبناء واستغلال الطبيعة من خلال المعرفة والتكنولوجيات المتنوعة المرتبطة بنمو سكان العالم، والعنف الناجم عن هذا النمو غير المنضبط - بالإنسانية إلى تعديل المصير العالمي للأنواع البشرية وتطور جميع الأنواع الحية الأخرى على هذا الكوكب. ومن خلال التدخل وتحويل العالم ، تخضع حياة الإنسان أيضاً للتغيير. وهذا التغيير الذي يحدثه البشر يمكن أن يقود البشرية إلى كارثة، أو تطوير طريقة جديدة للوجود في العالم. وفقاً لما أقره سير، أصبح الإنسان على ما هو عليه - مبدع، فردي، طموح، مستبد، ملك- لأنه، على عكس الحيوانات الأخرى، يعرف أنه سيموت، حتى بدون معرفة كيف؟ ومتى؟ "الموت والضعف الناجم عن الألم الذي تسببت فيه أنتج حضاراتنا الإنسانية"(serres,2014,p.10). الموت يجلب التغييرات التطورية والابتكارات في تاريخ الحضارات. وكل الأفراد، تموت الحضارات أيضاً. إن الجهل فيما يتعلق بموت الأفراد وموت أو

انقراض قوة عالمية هو، بالنسبة إلى سير، ما يدعم الممارسات والمعرفة البشرية، لأن معنى الأشياء مرتبط بنهايته، ولا يمكن التفكير في الحياة دون التفكير في الموت، لأن الحياة هي التي تعطي معنى للحياة. إنها تدفع الأفراد إلى اختراع الوسائل لغرض التغلب عليها فقد كان كل اختراع بشري مدفوعا بالرغبة في البقاء والخلود. كون أن الموت ظاهرة قديمة وطبيعية فإن موت الفرد أو موت ثقافة أو حضارة، لا تمارس على الإنسانية نفس المشاعر أمام النوع الثالث والجديد من الموت كما يسميه سير: الموت العالمي غير المنشور للبشرية، في إشارة إلى القنابل الذرية التي ألقيت على هيروشيما وناغازاكي. يكشف هذا الحدث عن القدرة البشرية الهائلة على إبادة الأنواع كلها. وفي مواجهة هذه الحقيقة، يتساءل الفيلسوف الفرنسي ما الذي يفكر به العلماء الذين لم يترددوا في السنوات اللاحقة في تزويد العسكريين والسياسيين في أقوى الدول وأيضا الدول الأخرى بأسلحة نووية حرارية متزايدة التدمير؟ إن الإتيقا وعلم الأخلاق والقانون والعلوم الإنسانية التي تعلموها لم تعد تبدو متوافقة مع الوسائل التي تضع سلطة اتخاذ القرار في أيدي أولئك الذين يمتلكونها الآن." (serres, 2008, p.12) من هيروشيما وناغازاكي لم يعد من الممكن التفكير في العلوم كقوة غير مهمة أو محايدة. بعد هذا الحدث، اهتزت العلاقة بين المجتمع والعلم، لأنه ولد بين المعرفة والقوة درسا بشويا.

في العلوم، حيث يتجاوز الممكن ماهو متوقع التنبؤ به، يوجد دائما هامش خطأ وبالتالي هامش مخاطرة. فكلما زاد مدى القوة، زادت أحداثها غير المتوقعة، إذ المعرفة لا تعمل كقوة، وفقا لسير. السبب ضروري، لكن ليس كافيا. وعلى عكس أولئك الذين يسعون للحصول على المعرفة المطلقة، تجدر الإشارة إلى أن الإنسان لن يتقن كل شيء. وكما هو معلوم، فإن العديد من الشركات لا تكتسب الثروة فحسب، بل تكتسب أيضا الوقت والشهرة من خلال الأبحاث وتطبيقاتها. فتاريخ البشرية يتكون إذن من التقدم والانتكاسات.

وإذا كانت الطاقة النووية في زمن الحرب تهدد حياة الناس، فماذا عن الضرر البيئي في خضم "السلام"؟ هذا الضرر الذي يلحق بالبيئة يؤدي إلى الموت الجماعي للكثير من الأنواع الحيوانية والنباتية وندرة الموارد الطبيعية، مما يهدد مستقبل البشرية. لكن في نفس الوقت الذي يخشى فيه الإنسان الأحداث العالمية، فإنه يسرعها. " في ضوء المضادات الحيوية، تظهر الميكروبات المقاومة للبندسيلين مرة أخرى. نحن ندفع نفايات الطاقة لدينا عن طريق تلويث المياه والهواء. [...] حشد من هيمنتنا يحدد القيود التي تثقل كاهلنا." (serres, 2004, p.103)

وفي خضم هذا كله، كيف يمكن إعادة توجيه الإجراءات البشرية والحد من الأضرار البيئية؟ كيف يمكن وضع حد للجرائم العالمية والواعية ضد الإنسانية؟ يؤكد سير أن الفلسفة قد التزمت الصمت حول هذه الأسئلة. " فلسفاتنا وآدابنا وثقافتنا عموما تفضل الناس دائما. أنا لا أنكر ما يقولون،

ولكن ما يسكتون عنه، ينسون نفس العالم الذي يكشف عن نفسه اليوم بكامله الهش."، 2008 serres (p.12) الاكتشافات العلمية تجعل الناس يحلمون بالخلود. بطريقة ما، تميل الحياة إلى الإطالة والتحويل. يتم إنتاج مخلوقات جديدة. التكنولوجيا الحيوية جعلت الإنسان يتلاعب بالأنماط الظاهرية والجينومات. ومن خلال هذا التطور التقني، يمتلك بالفعل القدرة على إنتاج الأنواع وتحويلها إلى نهايتها وبالتالي تحويلها إلى كائنات فنية تم إنتاجها، ونبذ المصير (الطبيعي) وعواقبه، هل يفقد البشر في هذه الحالة السيطرة على إنتاجهم؟ يتساءل سير. ويؤكد على حقيقة أن الإنسان يستبدل الحياة بالتجربة والمعرفة. إذا لم يتم إدارة النجاح التكنولوجي بشكل جيد، مع الأخذ في الاعتبار المستقبل وحدود البشرية، فقد يعاني البشر من الكوارث. يعد التلاعب بالجينات والذرة والاستنساخ أمثلة بسيطة عن التجارب غير الناجحة في تعريض مستقبل البشرية للخطر.

من الضروري عندئذ تحديد المدة التي ستسمح بها الفوائد التكنولوجية والعلمية للأفراد بالبقاء على قيد الحياة بعد انقطاع الإنتاج لسنوات قادمة. من المحلية أصبحت العواقب عالمية وكونية وكل شيء يعتمد على الجنس البشري " إن مزج التميز بين معرفتنا وعنفتنا الشديد هو في الحقيقة عمق لا يمكن فهمه". (serres, 2008, p.159)

كما أكدت الدراسات العلمية منذ الثورة الصناعية، زيادة انبعاث الملوثات في الجو بشكل كبير، مما أدى إلى ما يعرف الآن باسم ظاهرة الاحتباس الحراري. وهذا الانخفاض أو الارتفاع في درجة الحرارة لم يحدث من قبل أبدا بل كانت تعد ظاهرة طبيعية غير أنها تسارعت جراء تصرفات الإنسان. وهذه الزيادة في تركيز الملوثات في الغلاف الجوي هي واحدة من السمات المراثية والأكثر نقلا للعمل الإنساني على الأرض، لأنها تتعارض بشكل مباشر مع جودة حياة الإنسان. لا يعرف العلماء كيفية عكس درجات حرارة العالم أو مشاكله الناجمة عن هذه الظاهرة.

فالإنسانية المنغمسة في العوامل الاقتصادية والعلمية والتقنية التي لا تستطيع الهروب منها، لا تجد طريقة فعالة لحل مشاكل البيئة. ومع تزايد وانتشار هذه الأفعال، تصبح الطبيعة أكثر فأكثر موضوعا عالميا للإنسان. "إذا كان ينظر إلى الأرض في وقت مضى على أنها كوكب قوي ومهدد، منتصر على البشر، فإنها في لحظة التغير العالمي اليوم ينظر إليها على أنها هشة وسلبية وتتغير بسهولة. إنه تحول محالة الم ، منتصر المهدد إلى وضع الضحية". (serres, 1990, p.132)

بالنسبة إلى سيفرقد شكلت العولمة عالما جديدا: عالم تقني ومادي. و الحقيقة أن هذا العمل الإنساني المتواصل على الطبيعة لا يمكن أن يعرف سوى عدد قليل من الأسباب، ولكننا نجهل العواقب على المدى الطويل. فالتقدم التقني هو خارج عن سيطرة الأفراد، مما يجعلهم يخشون آثاره. "إن معرفة الأفراد واهتماماتهم مرتبطة بالفعل الذي يمارسونه والوقت، ولم يعد الإنسان يتوقع

الأحداث كما لو كانت مرتبطة بالحظ أو القدر، لأنه يعتقد انه قادر على قيادتها وتغييرها ليصبح سيدا في وقته وحياته". (serres , 1990 , p.66)

إنها الدراية والمعرفة التي تتدخل بشكل كارثي في العالم، والتي لم تكن تعتمد في السابق على البشر. كانت معرفة الإنسان مكرسة لإنتاج الأشياء العالمية. وكيف يتم بناء هذه الأشياء، إنها تهدد الكوكب لأنها تغير المناخ والتطور والتنوع البيولوجي. لذلك يعلن سير بأننا فقدنا العالم: "لقد حولنا الأشياء إلى فئات أو سلع، إلى رهانات ألعابنا الإستراتيجية، وفلسفاتنا، بدون الكون، تحدثت اللغة أو السياسة أو نصف المنطق أو اللغة فقط." (serres , 1990 , p.54). إن هيمنة الإنسان وتملكه هما اللذان يسببان تدهورا في الطبيعة، ومن أجل السيطرة عليها، أصبح الإنسان أقل تكيفا معها. الطبيعة الجديدة، ثمرة إنتاج الأفراد، تهدد بالسيطرة عليهم ومشاركتهم نفس المصير. علاقة الإنسان بالأشياء، تتلخص في الحق في الملكية. وفكرة الاستيلاء على الأشياء هي التي تعرض الكوكب للخطر.

يؤكد الفيلسوف بوضوح أن فكرة ديكرت عن السيطرة على الطبيعة وحيازتها قد تم تأسيسها في الثورة العلمية الحديثة وأنه من الضروري تغيير الاتجاه والتخلي عما فرضته هذه الفلسفة التي أوصى فيها ديكرت بضرورة أن يكون الشخص هو مالکها وسيدها وهذه السيطرة الديكرتية كما يقول سير "تقوم بتعديل العنف الموضوعي للعلم إلى إستراتيجية منظمة تنظيما جيدا، تتلخص علاقتنا الأساسية مع الأشياء في الحرب والممتلكات" (serres , 1990 , p.58). وبالتالي يجب أن يفكر الناس أن الأرض كانت موجودة من دونهم وقد تعود بدونهم، ومع ذلك فإنهم هم الذين لا يستطيعون العيش بدونها لذلك من الضروري وضع الأشياء في الوسط ونحن في محيطها كالطفيليات. (serres , 1990 , p.60)

إن البحث عن حلول فورية يقود الثقافة الغربية إلى الاعتقاد بأن العلم هو المشروع الوحيد للمستقبل. يتم نسيان الذاكرة طويلة المدى، على سبيل المثال الخبرات المتراكمة لمختلف الثقافات ومعرفة التقاليد القديمة. إذا كيف يمكنها أن تحمي نفسها في المستقبل؟ كيف يمكنها أن تمضي في المهمة طويلة الأجل مع وسائل قصيرة الأجل؟ كيف يمكن التنبؤ بشكل مقنع بمستقبل الأجيال وسط الاختزال العلمي؟ في مواجهة هذه المشاكل الكبرى التي تتطلب مزيدا من الوقت، يجب على الإنسان المعاصر توخي الحيلة والحذر. ويجب أيضا أن يتوقف قليلا ويفكر في القيم الثقافية والأخلاقية لمواجهة المخاطر الحقيقية التي تهدد مصيره على كوكب الأرض.

2- من حرب الجميع ضد الجميع إلى حرب الإنسان ضد الطبيعة :

عند رسم الاختلافات بين العنف والحرب، أوضح ميشال سير أن العنف غير متوازن، في حين أن الحرب تحمل معها نوعا من القانون، لذلك يؤكد أن الحق ولد مع الحرب. لا تتميز الحرب بالاستغلال الفاضح للعنف، ولكن من خلال تنظيمها، ووضعها القانوني وعقدها، لأنه قبل أن تذهب مجموعتان

إلى الحرب، يبرمان صفقة: "التاريخ يبدأ بالحرب، ويفهم على أنه النهاية واستقرار الصراعات العنيفة من خلال الاتفاقيات القانونية" (serres, 1990, p.30)

وهكذا، فإن الحرب هي مؤسسة للقانون، لأنه هو الذي يضفي عليها الشرعية ويعيق نمو العنف، وهو الذي يكيف سلوك الإنسان في المجتمع. وفقاً لسير، فإن القانون ينظم العنف ويقلله إلى الحد الذي يفرض عليه القواعد. يمكن للقانون فقط التدخل للحد من العنف الذي ينشأ بالضبط من غير القانون. القواعد تحد من العنف وتتضمنه. ينتقد ميشيل سير حالة "الحرب ضد الجميع"، التي ينادي بها هوبز (Thomas Hobbes 1588-1679) وروسو (Jean-Jacques Rousseau 1712-1778) : "عندما يزعم هوبز، وروسو، وآخرون، أن المجتمعات الإنسانية تنتقل من حرب الكل (حرب الجميع ضد الجميع) إلى العقد الأساسي، فإننا لا نفهم أبداً - ولا هم - كيف هذا العنف يكفي لتهديئة المناقشات التي يمكن التوصل إليها والتي تسمح بالاتفاق وبالتالي بقاء هذه المجموعات. العنف المفتوح لا يجلب السلام. النظام لا ينشأ من الفوضى. والإبادة لا تولد الاتفاق" (serres, 1990, p.43)

يؤكد سير أنه "عندما يقاتل الجميع ضد الجميع"، فليست هناك حالة حرب حقا بل حالة عنف. ومعه تولد أزمة لا حدود لها يمكن أن تهدد البشر بالانقراض. إنها الحرب التي تدفع الإنسان إلى نشر العنف، وتغيير مجرى التاريخ، لكن رغم ذلك ينغمس البشر دائماً في نفس الصراعات كما لو كانت هناك عودة أبدية. "إن نمو وسائلنا العقلانية تقودنا، بسرعة يصعب حسابها، نحو تدمير العالم الذي، بحكم تأثير العودة في الآونة الأخيرة، قد يحكم عليه بالانقراض التلقائي." (serres, 1990, p.32)

يقرر الفيلسوف سير أن سعي البشر وراء الهيمنة هو الذي يولد عنفاً واضحاً ذي بعد عالمي، عنف يتوجه نحو استنزاف الموارد الطبيعية بشكل لاعقلاني، وليس هذا فقط بل يؤدي إلى تدمير المحيط عن طريق التلوث. لذلك، هناك حاجة للعودة إلى العقد الاجتماعي البدائي ومراجعته وتوقيع عقد جديد: عقد لا يستبعد الطبيعة. فحرب الإنسان ضد الطبيعة يمكن أن تسمى الحرب العالمية، لأن العنف ضد الطبيعة يتزايد في جميع أنحاء العالم، وهذه الحقيقة تجعل الحروب بين الناس لا قيمة لها في مواجهة المشاكل البيئية الخطيرة. التي تضع الكوكب في خطر، وتكشف المشهد العالمي المشوه عن جمال الطبيعة.

يجب أن يعترف القانون اليوم بالجريمة ضد الأرض، كما اعترف من قبل بمفهوم الجريمة ضد الإنسانية. لكن لا يوجد حق ينظم حرب الإنسان ضد هذه الأرض. "لم نكن نعرف أن الحرب العالمية قد بدأت معنا منذ الثثرة الأولى لتقنياتنا؛ علاوة على ذلك، ولأننا فقدنا دائماً لم نكن على دراية بذلك، اليوم فقط نعلم أن أسلافنا الأوائل قد قاموا بالفعل بتهجير الأرض، وبدأنا من جديد: لقد كنا خاسرين ضعفاء وعاجزين وغير ضارين ومحدودين ضد العالم، على العكس، نحن ندرك اليوم أننا قد

حذرنا العالم لأننا بدأنا الفوز" (serres , 1990 , p. 135). لقد أظهر العالم أو الطبيعة موقعه كخصم للإنسان تفوقه بالفعل على القوى البشرية والعلمية والتكنولوجية. لذلك، يوضح سير الحاجة إلى عقد جديد، مادامت العقود القديمة لم توقف هذه الحرب. وهو يعتقد أنه بوضع عقد جديد يمكن للبشرية أن تضع حدا للحرب "العمياء" ضد العالم من خلال إقامة السلام بينهما. وإذا لم ينظم أي حق حرب الإنسان مع الطبيعة في مواجهة المخاطر التي تهدد مستقبل البشرية، فإن القرار الحكيم، هو التوقيع على العقد كمرادف لمعاهدة السلام، لأن محاولة إصلاح أضرار هذه الحرب لم تعد مقبولة. فالسلام لا يولد من الاحتجاجات العنيفة ضد العنف، ولكن من خلال المشاريع التي تحول العدوان. "يجب أن نقرر السلام بيننا لحماية العالم والسلام مع العالم لحمايتنا" (serres, 1990, p. 47).

ينعكس الصراع بين البشر في الطبيعة، ويجعلها الاقترال الضحية الأكبر. يوضح سير أن كل معرفة تتطلب اتفاقاً أو إجماعاً على أن حالات القانون فقط هي المسؤولة في الواقع عن التأسيس. ويقارن الحالة الإنسانية بحالة الطفيلي (Parasite). فمن خلال ممارساته المسيئة وخطئه بين الاستخدام وسوء المعاملة، يضر مضيفه ويمكن أن يدمره. هكذا يتصرف الإنسان كطفيلي. إنه، يعرف، بشكل عام، أن الحق هو الحد الجماعي للعمل الطفيلي. وهو بمثابة القانون الذي يحاول الحد من التطفل التعسفي بين البشر. ومع ذلك، فإن "الطفيليات القديمة، المعرضة لخطر الموت بسبب التجاوزات المرتكبة على مضيفها، والتي لم تعد قادرة على إطعامهم أو إيوائهم، أصبح تعايشها إلزامياً، ولذلك يجب على البشرية أن تختار بين الموت أو التعايش" (serres , 1990 , p. 65).

ولكي يدرك الأفراد التعايش، فإنه يتطلب التعلم والتعليم، لكن هذه العملية التعليمية لن تحدث بسرعة، فهي تتطلب وقتاً وجهداً. يكشف التكافل عن مرحلة جديدة من الإنسانية، وطريقة جديدة للتفكير والوجود في العالم. وفقاً لسير، يجب أن تفكر البشرية المهددة بالموت الجماعي في حق يؤسس اتفاقاً بين الإنسان والطبيعة، وبالتالي من الضروري توقيع عقد طبيعي مع العالم. هذا العقد يعيد ربط الطبيعة بالثقافات. "إنه عقد يتولى الدفاع عن فكرة الاعتراف بان الأحياء، والموضوعات الجامدة، وكل ما يندرج تصنيفه في إطار الطبيعة هو موضوع للحق" (علاوشيش وآخرون ، 2005 ، ص. 146).

3- فكرة المعاملة بالمثل أو من التطفل إلى التعايش :

"...يعرف حق التكافل (Symbiose) بالتبادل؛ فبقدر ما تعطي الطبيعة للإنسان، يجب عليه أن يعيد لها ما أخذ منها، حيث يصبح هذا موضوعاً للحق." (serres , 1990 , p. 67) هذا الفهم يوحي بأن التفاعل بين البشر والطبيعة يتضمن علاقة وثيقة ثنائية الاتجاه تثير استجابة من الإنسان، حيث المعاملة بالمثل هي نقطة البداية لعقد الاتفاق مع الأرض، الأمر الذي يتطلب الالتزام، لصالحنا ولصالح الطبيعة أيضاً. وهذا، بدوره، هو المفضل مع حرصنا على حماية الروابط والعلاقات التي تبقينا

متشبهين بها، وبالتالي تحقيق توازن النظام الايكولوجي للأرض. فاستغلال الطبيعة لا يهدف إلى التعبير عن شبكة من الحتمية وشبكة من ردود الفعل الشرطية، ولكن الانفتاح على الحرية الإبداعية لعدد متزايد من البشري الإمكانات الأعلى للإنسانية، ولذلك وجب منذ البدء تغيير في العقلية التي نطمح أن تنعكس في الطريقة التي نتعامل بها مع الطبيعة، أي أن ننقل من الحداثة التي يعتمد فيها الموقف على التفكير في السيطرة والإجراءات الضارة وهي العلاقة التي نمارس فيها نزع الطابع الشخصي للطبيعة، ولكن أيضا علاقة الإنسان بنفسه وبمجتمعه " فأخلاق الأرض تغير دور الإنسان العاقل من مستعمر لمجتمع الأرض إلى عضو عادي ومواطن فيه، إنها تقتضي منه احترام الأعضاء الزملاء، وأيضا احترام المجتمع بحد ذاته" (زيمرمان وآخرون ، 2006، ص.147)، فعندما يتصرف الإنسان مع الحيوانات وجميع الكائنات الحية الأخرى بقسوة معتقدا في نفسه أنه مركز الكون، ومعتبرا أن الأرض مخزن لا ينضب معينه من الثروات حيث يمكن له استغلالها بواسطة استخدامه للعلوم والتكنولوجيا، فإنه بذلك يعمل على تدمير الطبيعة. لكل هذا، كانت العودة إلى الطبيعة أمرا ضروريا من خلال التعامل معها بما يسميه البعض بفن الحياة البيئي، يقول سير: "... العودة إلى الطبيعة! ... وفيها تتخلى علاقتنا بالأشياء عن الهيمنة والتملك والسيادة من خلال الإعجاب بالاستماع، والمعاملة بالمثل، والتأمل والاحترام، والتي لم تعد العلوم الملكية، قادرة على تحصيلها ... " (serres , 1990 , p. 67).

بالعودة إلى الطبيعة الحية للمعاملة بالمثل كدليل على التزامنا بتغيير الإجراءات التي اتخذناها على أرض الواقع في ممارسة تدخلاتنا، وفهم كيفية التعامل مع الأشياء، فهي تتيح لنا القدرة على السيطرة على تصرفاتنا وما يمكننا القيام به من خلال الرد والمبادلة، وتحقيق ذلك يكون في اعتقاد سير قائما على تجربة الحب، لأنه هو الباب الذي يفتح مسار الترميم مما يسمح بتغيير في عقليتنا، والذي يترجم إلى أعمال المعاملة بالمثل، والمساهمة في تحقيق علاقة التعايش، يقول سير: " أن نحب آباءنا، الطبيعي والبشري، التربة والجار؛ أن نحب الإنسانية، أمنا البشرية، وأمنا الطبيعية، الأرض" (, serres 1990 , p. 83).

في هذا الاقتباس، يتحدث سير عن قوانين الحب المزدوجة: حب الإنسانية، وحب العالم، التي تتقاطع وتؤدي إلى علاقة ممزوجة بالعدالة، طبيعية وإنسانية في نفس الوقت وهذه العلاقة لا يزال بإمكاننا رؤيتها اليوم في بعض المجتمعات حيث يعتبر أفرادها الطبيعة بمثابة أهم، وشريكهم، بحيث تقوم ممارساتهم البيئية في أخذ ما هو ضروري فقط، دون إهدار جميع مواردها، وبالتالي ضمان وجودهم ووجود الآخرين في المستقبل.

ويتساءل عن ماذا يمكننا أن نقدم للعالم الذي يعطينا ما يعطى؟ وماذا يمكننا أن نقدم للطبيعة التي تعطينا الولادة والحياة ؟ (serres , 1990 , p. 141) يقترح سير من خلال إبرام عقد التكافل، أن

نقبل بأننا ضيوف في الطبيعة وبذلك يمكننا أن ندرك المجموع الكلي الذي يرتبط ببعضه ارتباطاً وثيقاً في علاقة متبادلة، يؤدي قطع أو أضرارها إلى تدمير التعايش ويعرض حياة الجميع للخطر. بعض أفعال المعاملة بالمثل من خلال ممارسة العادات التي تسمح بهذا الاحتمال، والذي يعني الاهتمام بكل شيء موجود، لأن الطبيعة تعطينا كل ما لديها، وبالتالي نحصل على العديد من الفوائد وهذا يتيح لنا الحفاظ على وجودنا، وهو سبب كاف لإظهار أنفسنا من خلال إعادة جزء من المبلغ الذي نتلقاه. من الناحية المثالية، سيكون الحصول على التوازن هو استجابتنا بالرد، وبهذه الطريقة نحقق الترابط المتبادل بين الأطراف المعنية: البشر والطبيعة، لتغيير التعديلات التي أجريناها، والتي قد تؤثر علينا جميعاً.

4- نقد أطروحة العقد الطبيعي:

يعد الفيلسوف الفرنسي "لوك فيري" (luc ferry 1951) من أشهر منتقدي الايكولوجيا العميقة والعقد الطبيعي. ويؤكد أن الممارسة الفلسفية يجب أن تصطبغ بالإلحاد "وخلافاً للديانات التوحيدية الكبرى، تعدنا الفلسفة بأننا نستطيع وبأنفسنا وعن طريق العقل بلوغ تلك السكينة، وليس عن طريق الغير أو الإيمان" (فيري، الفلسفة خلاص علماني <https://alarab.co.uk>). وأن "الفلسفات الكبرى" حاولت دائماً جعل الإنسان يتغلب على الخوف. لكن البيئة هي التي تسمح بانتشار وتكاثر الخوف. إنه الخوف من أن يصيب الفرد بالشلل ويجعله أنانياً.

في كتابه الموسوم بـ "النظام البيئي الجديد: الإنسان والحيوان" تظهر انتقادات فيري وسخريته واضحة بالفعل في العنوان. مع انعكاس النظام البيئي، سيكون للنباتات والحيوانات قيمة أعلى من البشر. إنه لا يهدف إلى استبعاد البيئة العميقة (الايكولوجيا العميقة) لكنه يكشف أنه من أجل ضمان حياة البيئة والمحافظة عليها ليس من الضروري المساواة بين حقوق الطبيعة وحقوق البشر كما يفعل العديد من علماء وفلاسفة البيئة.

يؤكد أولاً على الاختلاف والتناقض الظاهر بين الفلسفات التي تناقش القضايا البيئية. وهذا التنوع يستبعد الحجج سواء كانت ضد الطبيعة أو لصالحها. في بعض النصوص التي تعود إلى القرن السادس عشر نجد أنها تتضمن نقداً لمركزية الإنسان في الكون وتبشر بالحق الجوهري في الحياة من خلال البحث عن حقوق الحيوانات والكائنات غير الحية (الغابات، الأنهار، المعادن...) وتحمل دعوة للإنسان في وجوب استغلال الثروات الطبيعية لغرض المحافظة على الحياة فقط، فالبشر لا يمكنهم تدمير هذه الثروات لأنهم ملزمون بالمحافظة على التوازن الطبيعي وضمان استمرارية الكائنات الحية.

يسلط "فيري" الضوء على التيارات البيئية الرئيسية الثلاثة "المتمايزة والمتناقضة" فيما بينها، والتي تميز بها العالم الأنجلوسكسوني وكذلك الألماني اللذين كانا سباقين إلى إثارة هذه المسائل وتواجه هذه

التيارات تحديات العلاقة بين الإنسان والطبيعة. الأول، مستوحى من الأفكار الإنسانية، وهو الأكثر شعبية والأقل دوغمائية بالنسبة لـ "فيري". وتتأسس فكرته انطلاقاً من حماية الإنسان باعتباره المركز وبالتالي ليس للطبيعة قيمة جوهرية فهذا التيار لا يعتبرها موضوعاً للقانون، لكن الإنسان يدرك أنه بتدميرها فإنه يعرض وجوده للخطر. أما الاتجاه الثاني هو الاتجاه النفعي الذي يعطي معنى أخلاقي لبعض الأنواع غير الإنسانية. ومن أجل الحد من المعاناة في العالم، يدافع النفعيون عن جميع الكائنات التي لديها القدرة على الشعور باللذة أو الألم وبالتالي يمكن أن تكون موضوعاً للحق: "في هذه الحالة، تتأثر الرؤية المركزية للإنسان بالفعل بشكل خطير، حيث يتم إدخال الحيوانات في عالم المخاوف الأخلاقية في ظروف مساوية للبشر". أما الاتجاه الثالث فيعترف بحقوق الطبيعة بما في ذلك النباتات والمعادن. بالنسبة لفيري، فإن تدفق "الإيكولوجيا العميقة" هو الطريق للبحث عن الظروف الأكثر تطرفاً والمراجعة النقدية لقضية الإنسانية، لأن حقوق الطبيعة تتعارض مع مركزية الإنسان، وميشال سير وهانز جوناكس (Hans Jonas 1903-1993) من بين أقوى مؤيدي هذا الاتجاه. (ferry, 1992, p.27).

ويظهر تعاطف فيري مع تيار النفعية واضحاً، حيث ينتقد الصيد والتجريب على الحيوانات وبيع الفراء والريش والجلود التي تحفزها الموضة ووسائل الإعلام. "فقط وفي إطار فلسفي خاص للغاية يمكن للنفعية، أن تتغلب على فكرة المركزية البشرية للإنسان الديكارتي وتعتمد شكلاً عقائدياً ثلثاً وهذا لا يعني فكرة أن الإنسان ليس هو الموضوع الوحيد للقانون، ولكن بشكل عام، جميع الكائنات عرضة لتجربة المتعة أو الألم" (ferry, 1992, p 67).

يحاول فيري إظهار وجود نقد جذري وعنيف للتقاليد الغربية، فمعاداة الإنسانية المرتبطة بقيمة الطبيعة، هي إهانة كاملة للتكنولوجيا. البيئة العميقة تعارض الحداثة البشرية وكل شكل من أشكال الثقافة الإنسانية وبالتالي تقف ضد الثقافة الغربية. كما لو أن الإنسان لم يكن طبيعياً وأن الغرب لم يكن "صحيحاً سياسياً". كما ينتقد فيري أيضاً الطريقة التي يفكر بها المحيط الحيوي، موضحاً أنه "من خلال الطابع الشمولي لهذا الفكر، يحاول تجاوز حدود الإنسانية وينتهي به المطاف للنظر إلى المحيط الحيوي ككيان إلهي تقريباً، أعلى بشكل لا نهائي من أي حقيقة فردية، إنسانية أو غير إنسانية" (ferry, 1992, p. 132). وهكذا يصبح المحيط الحيوي موضوعاً للقانون، وفي مرتبة أعلى من البشر. وهذا يستعيد علم البيئة مفهوم مصداقيته من النظام.

فمنح الغابات والجزر وضعاً قانونياً كما يرى فيري يرقى إلى تحويل الشمولية ومعاداة الإنسانية إلى شعارات مناهضة للحداثة، مما يثبت أن علاقة الإنسان بالطبيعة أصبحت جريمة ضد الحياة. فالتفكير في الطبيعة كموضوع للقانون هو حماقة لا تغوي إلا أولئك الذين يشعرون بخيبة أمل من

هذا العالم الحديث يقول فيري: "يمكن للإنسان أن يولي بعض الاحترام للكائنات غير البشرية، للحيوانات، والمتنزهات الوطنية، والمعالم الأثرية والأعمال التي هي ثمرة ثقافته، لكنها ستكون دائما أشياء وليست موضوعات للقانون؛ بمعنى آخر: مشروع الأخلاق المعيارية ضد الإنسانية يحمل تناقضا في مفاهيمه" (ferry, 1992, p.194).

ووفقا لفيري، فإن كلا من هانز يوناس وميشال سير هما مثالان عن أولئك الفلاسفة الذين يستعينون في كتاباتهم بالقصص الخرافية والأساطير القديمة لبيان موقفهم من التقنية، وتبسيط الضوء فقط على إمكانية التدمير المتاحة لدى البشر. بالنسبة لفيري، أن تكون إنسانا يجب عليك الاعتراف بالحدثاء واحترامها والدفاع عنها. وعدم التغاضي عن أهمية العصر الحديث.

حمل العقد الطبيعي حسب رؤية فيري النقدية، مثالية يوتوبية (Utopie) جديدة يمكن أن تثير معاداة للحدثاء. يكشف ميشال سير، وباسم حقوق الطبيعة ومعارضة للمركزية البشرية، عن اعتبار مجمل الكون موضوعا للقانون، ومشهدا على فكرة مفادها أن الثقافة الغربية تختلف عن الثقافات الأخرى لأنها سمحت بتدمير الطبيعة منذ القرن السابع عشر مع فرانسيس بيكون (1561-1626) (Francis Bacon) وديكار (1596-1650) (René Descartes) ولكن وفقا لفيري، فإن ميشال سير يبالغ في انتقاد الصناعة الحديثة من خلال الكشف عن أن النزعة الاستهلاكية تدفع إلى النضوب التام لموارد الكوكب. وأن المشاكل البيئية لها تداعيات وانعكاسات عالمية: "ثم إن هذا العالم الذي تعاملنا معه على أنه مجرد شيء سيتحول إلى موضوع، يكون قادرا على الانتقام: تالف، ملوث، سيء المعاملة. الآن بدوره يهدد بهزيمتنا. ومن هنا جاءت فكرة العقد الطبيعي على غرار العقد الاجتماعي الشهير، ومثلما اقترحوا قانون حكم العلاقات بين البشر، سيكون الأمر بالمثل مع العلاقات مع الطبيعة، باعتبار الإنسان "طفيلي" وغير متكافئ في علاقته مع الطبيعة، يجب أن يصبح الإنسان متكافئا ويقبل التبادل..." (ferry, 1992, p.123).

وهكذا، بالنسبة لـ "فيري"، فإن العقد الطبيعي غير عقلاني لأن الطبيعة لا يمكن لها أن تتقلص و تنكمش في اتفاق بين متساوين. إن الاستعارة التعاقدية، التي ليست صارمة، تعمل فقط على اتهام التقنية بأنها السبب الرئيسي للتدمير في العالم. ويشير إلى أن الطبيعة ليست خاضعة للقانون، لأنها ليست قادرة على المعاملة بالمثل، فالحق ولد من طرف الإنسان ولأجله. فيبدو إذن من الغباء بالنسبة لنا أن نعامل الحيوانات وكائنات الطبيعة ككيانات قانونية أو كأشخاص. لأن ذلك سيعرض الإنسانية للخطر، ويهدد باختفائها، مما يؤدي إلى تفكيك الحدثاء.

عند التفكير في الطبيعة ككيان مشترك، فإن القصد هو تحويل المحيط الحيوي إلى نموذج أخلاقي يجب على الإنسان الالتزام بقواعده وإتباعها. فالايكولوجيا، التي تطالب بحقوق جميع الكائنات الحية،

تؤدي إلى تفسيرات مختلفة، حتى أنه قد يملكنا الاعتقاد بأن ندافع عن الفيروسات والبكتيريا التي تسبب الضرر للأفراد.

يتضمن العقد الطبي إذن، تحدياً جذرياً للتقاليد الإنسانية، ومثل جميع أنصار البيئة العميقة فإن ميشال سير يهتم ويتهجم على القوانين بتجاهلها للعالم. يجب الاعتراض، كما يقول فيري، وليس بدون سبب، على أن العقد الطبي ليس أكثر من حكاية مجازية أكثر منه حجة صارمة. عند مقارنة أفكار ميشال سير بأفكار هانز يونس، نلاحظ بأن يونس في مبدأ المسؤولية، ينتقد أيضاً الإنسانية ويعترف بحقوق الطبيعة، ومع ذلك، فإنه لا يدافع عن فكرة الطبيعة كموضوع للقانون. إن هم هؤلاء الفلاسفة ليس التفكير في الحاضر، بل في المستقبل فقط. لكننا بحاجة إلى التفكير في الحاضر، لأن الماضي قد حدث بالفعل والمستقبل هو وهم.

• الخاتمة:

كما رأينا، فإن تدخل الإنسان في الطبيعة ليس ممارسة حديثة، بل هو موجود منذ البداية. ومع ذلك، ومنذ الثورة العلمية الحديثة وما بعدها، تكثف هذا التدخل واتخذ أبعاداً كبيرة تحت تأثير فكرة أن الإنسان هو "مالك وسيد" للطبيعة. لقد أثرت المعاني المختلفة المعطاة للطبيعة عبر تاريخ البشرية بشكل كبير على العلاقة بين الطبيعة والإنسان. منذ بداية الحياة، اعتبرت الطبيعة كآلة يمكن التحكم فيها عن طريق العمل البشري. وهكذا، فإن المفهوم الآلي، والتقدم التقني والعلمي دفعت البشرية إلى الإيمان بالتقدم المادي غير المحدود وغير النهائي، وهذا ما خلق تهديداً للطبيعة الإنسان وإيذاً بانهيار القيم " فعندما يهدد خطر العلم الإنسان، عندما تكون التفاؤلات القديمة عتيقة أو بالية، وعندما ندرك أن العلم يحقق أحياناً أعظم الشرور، فكيف لا تستلزم هذه الأخطار القاتلة أخلاقاً نظرية جديدة إجرائية ومنيرة في السياق المعاصر" (روس، 2001، ص.18).

إن الأزمة الاجتماعية البيئية المعاصرة، هي أيضاً أزمة ثقافية، مرتبطة بالطريقة التي تفكر بها الثقافة الغربية في الطبيعة وتداخل معها. أو كما يقول مايكل زيمرمان: "النظرة الغربية المهيمنة لا تنسجم مع أخلاق بيئية، فالطبيعة وفقاً لها تعد ملكية حصرية للإنسان" (زيمرمان وآخرون، 2006، ص.27). لذلك من الضروري التفكير في الممارسات، والقيم والنظرة العالمية لهذه الثقافة المهيمنة. ولما كانت العواقب عالمية وشمولية، وجب أيضاً التفكير في أخلاقيات عالمية وأقل مركزية تضبط العلاقة بين الإنسان والطبيعة. من الضروري التشكيك في أن التقدم المادي غير محدود والتغلب على البراديغم الديكارتي من أجل تحقيق رؤية عالمية أكثر شمولية حيث يكون فيه الترابط بين الظواهر، وإقامة توازن في العلاقات الإنسانية وعلاقة الإنسان بكوكب الأرض.

من خلال مؤلفه "العقد الطبيعي" يكشف ميشال سير عن نتائج سوء استخدام المعرفة، وحدود وفشل الإنسانية في التعاطي مع موضوع الطبيعة. ويؤكد بأن الابتكارات العلمية والتكنولوجية لا تجلب دائما التحسينات والمنفعة، بل تؤثر سلبا على الطبيعة التي أصبحت موضوعا عالميا مدركا. لذلك يدافع عن فكرة العقد كوسيلة لموازنة علاقة الإنسان بالطبيعة، والذي يجعلها موضوعا شرعيا مع الاعتراف بقيمتها الحقيقية. وكما رأينا من خلال ثنايا هذا البحث فإن سير يسلط الضوء على المشكلات الأخلاقية والسياسية والعلمية، محذرا في الوقت نفسه من التخلي عن أخلاقيات المسؤولية، وبالتالي ضمان وجود الأجيال المستقبلية.

بأعماله المختلفة وبخاصة العقد الطبيعي يضع سير الفلسفة أمام مشكلات جديدة وتحديات صعبة. إنه يشكك في عنف الإنسان ضد العالم، والتلاعب بالحياة، والعقد الاجتماعي، والبراديغم الديكارتي، والأساطير الجديدة التي تنتجها التكنولوجيا العلمية، ويحمل العقد الطبيعي اعترافا بالإنسان كجزء من هذه الطبيعة ومن هذا العالم، وككائن وحيد يمكن في الواقع أن يتدخل في حياة الأنواع، وبالتالي لا يمكن إعفائه. من مسؤولياته وواجباته.

من خلال الكشف عن مشاكل العقد الاجتماعي (التي حولت الطبيعة إلى طبيعة بشرية)، ينتهي الفيلسوف إلى بيان الحد الرئيسي لعقده الجديد: فكرة الطبيعة كموضوع للحق. لا يمكن إبرام العقد، كونه سندا قانونيا، إلا بين أشخاص متساوين (أفراد مستقلون بالكامل)، والطبيعة لا يمكن لها التعاقد. لكن في المقابل فإن القانون يتسم بالمرونة ويمكن أن يتعرف عليه باعتباره موضوعا للحق، والدفاع عنه أمام المحاكم. لذا فإن المشكلة ليست في القانون في حد ذاته، وإنما تكمن فيمن يطبقونه، فبدافع من مصالحهم الخاصة، قد لا يعترفون بحقوق لغير البشر، لذلك لا يمكننا أن نؤمن بالدفاع عن الإنسان الأناني فيما يتعلق بالطبيعة.

وعلى الرغم من أنه تمت المطالبة بحماية الكائنات غير البشرية في القرون السابقة، إلا أن هذه الفكرة تبدو جديدة بالنسبة للبعض ومثيرة للبعض الآخر، وفي هذا المعنى يعد التفكير في أخلاقيات بشرية ملتزمة وأقل مركزية بالكائنات غير الإنسانية تحديا.

لا يمكن اعتبار "حب" سير كحل للمشاكل المعاصرة أيضا. المصالح الفردية تجعل الحب بين البشر صعبا، وأكثر منه صعوبة حب الطبيعة. بشكل عام، يكشف الاهتمام بالقضايا البيئية عن اهتمام بحياة الإنسان، لأن البحث عن حلول لاحتواء ندرة الموارد الطبيعية يحدث فقط عندما تتداخل هذه الموارد مع رفاهية الإنسان ونوعية الحياة. وخوفا من المستقبل الغامض بدت الإنسانية خجولة في التفكير في كيفية المحافظة على الطبيعة. ومع ذلك، على الرغم من محدوديتها ومع وجود بعض العيوب، فإن فكرة العقد الطبيعي تكشف عن الإمكانيات والحلول اللازمة لإبطاء الأزمة البيئية

المعاصرة. يجب أن تدرك الإنسانية أنها تعتمد على الطبيعة لبقائها وأنها جزء منها. وهذا الوعي لن يتحقق إلا من خلال التعليم الاجتماعي والسياسي الذي يمكن من رفع الوعي وتوعية الأفراد بأخلاقيات المسؤولية والحكمة.

مراجع البحث :

- 1) Michel Serres.(2007). Jules Verne, la science et l'homme contemporain, (paris : édition le pommier).
- 2) Michel Serres.(1990) Le Contrat Naturel, (paris : édition François bourin) .
- 3) Michel Serres. (2008) La Guerre Mondial, (paris : édition le pommier).
- 4) Michel Serres.(2014) Hominescence, (paris : édition le pommier).
- 5) Michel Serres. (2004)Rameaux, (paris : édition le pommier).
- 6) luc ferry.(1992) le nouvel ordre écologique, l'arbre, l'animal et l'homme (paris :Editions Grasset et Fasquelle).

- 7) آمال علاوشيش. (2015). من فرضية العقد الاجتماعي إلى لزومية العقد الطبيعي، الأخلاقيات التطبيقية، جدل القيم والسياقات الراهنة للعلم، ط1. الجزائر. منشورات الاختلاف.
- 8) جاكين روس. (2001) . الفكر الأخلاقي المعاصر، تر:عادل العوا . ط1. بيروت، منشورات عويدات.
- 9) مايكل زيمرمان، وآخرون . (2006) . الفلسفة البيئية من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية. عالم المعرفة، تر: معين رومية، ط1. الكويت. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب .

- 10) الفيلسوف الفرنسي لوك فيري: الفلسفة خلاص علماني <https://alarab.co.uk>